

ارتكاز الفكر النحوي على الحديث والأثر

في كتاب سيبويه (**)

تأليف الدكتور محمود فجال (***)

أ. د. عبد الإله نبهان (*)

عنوان هذا الكتاب وثيق الدلالة على موضوعه ومباحثه، وخصوصاً

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(**) نُشر الكتاب في الرياض عام / ١٤٣٠هـ / في / ٥٢٩ / صفحة، ولم تُذكر جهة النشر.

(***) الدكتور محمود بن يوسف فجال، وُلد في حلب سنة / ١٩٣٩ /، ونال درجة

الدكتوراه من جامعة الأزهر بالقاهرة سنة / ١٣٩٨هـ /، وعمل بالتعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية، وتوفي بالرياض سنة / ٢٠١٥ /، وله عدد من الآثار:

- الحديث النبوي في النحو العربي، نادي أبها الأدبي، مط. العبيكان، الرياض / ١٤٠٧هـ .
- السير الحثيث إلى الاستشهاد بالحديث النبوي، نادي أبها الأدبي، مط. العبيكان، الرياض / ١٤٠٧هـ .
- الإصباح في شرح الاقتراح، دار القلم، بيروت / ١٤٠٩هـ .
- الاقتراح في أصول النحو وجدله للسيوطي (تحقيق)، مط. الثغر، خميس مشيط / ١٤٠٩هـ .
- تخريج أحاديث الرضي في شرح الكافية للبغدادى (تحقيق)، النادي الأدبي، الدمام / ١٤١٦هـ .
- فيض الانسراح في روض طيّ الاقتراح لابن الطيب الفاسي (تحقيق)، دار البحوث، دبي / ١٤٢١هـ .

وكان الدكتور المرحوم محمود فجال قد نال درجة الدكتوراه بتحقيقه كتاب (الكافي

في شرح الهادي للزنجاني / ٦٥٥هـ /) في جامعة الأزهر بالقاهرة / ١٣٩٨هـ .

لدى دارسي النحو وأصوله، وإذا ما نظرت إلى آثار المؤلف في الحاشية فإنك ترى أن ثلاثة كتب منها تنحو إلى الكلام على الحديث النبوي في النحو العربي، وذلك منذ عام / ١٤٠٧ هـ/، فلا عجب أن توجّج المرحوم الدكتور فجال نتاجه العلمي ببحث جعل عنوانه: (ارتكاز الفكر النحوي على الحديث والأثر في كتاب سيبويه)، وذلك في (٥٢٩) صفحة.

وقضية الاستشهاد بالحديث والأثر في النحو العربي، قضيةٌ كثر فيها القول والبحث لدى المتأخرين من النحاة، ثم أتى الباحثون المعاصرون فخاضوا فيها، وألّفوا الكتب، وكتبوا البحوث، وفيها من التكرار ما فيها، ومن انعدام الثمرة ما فيها، فهذا يؤيد، وهذا يعارض، وذلك يتوسط، وذلك يضع شروطاً، وآخر يرى أن سيبويه لم يحتج بالحديث، وآخر يرى أنه ذكر عدة أحاديث، ثم جاء فلان فقال كذا، وفلان قال كذا... وهكذا.

وفي عام / ١٩٧٠ / صنع أستاذنا العلامة المرحوم أحمد راتب النفاخ / ١٩٩٢ / (فهرس شواهد سيبويه: شواهد القرآن، شواهد الحديث، شواهد الشعر)، وفي هذا العنوان نجد إشارة واضحة إلى وجود شواهد حديثة في كتاب سيبويه، فإذا ما رجعنا إليها وجدنا الأستاذ يقدم لنا خمسة أحاديث مخرّجةً أحسن تخريج، ثم أعطاني بعد ذلك أربعة أحاديث أضفتها إلى ما في الفهرس فبلغت آنذاك تسعة أحاديث، والحديث لا يعني هنا حديثاً تاماً، إنه غالباً جملة من حديث أو كلمة أو كلمتان:

- كقوله ﷺ: «فبها ونعمت».

- أو كقوله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن قيل وقال».

ولم يكن سيبويه ينصّ على أن هذا الكلام من الحديث أو من الأثر، وإنما كان يرد عنده على أنه من قول العرب؛ لذلك كان اكتشاف كونه حديثاً

يعتمد على معرفة حافظٍ للحديث مزاوِلٍ قراءته ومراجعة كتبه؛ ليكتشف أن هذه العبارة أو الكلمة من الحديث.

هذا، وكانت الدكتورة خديجة الحديثي قد استعرضت في كتابها (موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف)^(١) الأحاديث التي احتج بها النحاة بعد سيبويه، وهذا لا يدخل في نطاق تعريفنا بكتاب الدكتور فجال.

واضح من عنوان الكتاب أن المؤلف قد استقرّ رأيه على أن سيبويه ممّن ارتكز النحو عنده على الاستشهاد بالحديث والأثر، وفي سبيل ذلك ألف كتاباً كبيراً مقدّماً فيه الدليل والبرهان على ما ذهب إليه في العنوان.

جعل المؤلف كتابه قسمين، وجاء القسم الأول في ثلاثة أبواب، وكل باب مقسّم إلى فصول، وبعض الفصول مقسّم إلى مطالب، أما القسم الثاني فقد خصّص لذكر الأساليب والألفاظ الموافقة للحديث والأثر مما ورد لدى سيبويه، وقدّم لكتابه بمقدمة لخص فيها ما اجتمع في الكتاب، وعدّد أقسامه وأبوابه وفصوله ومطالبه، وقال في المقدمة: «والحق أقول: إن الاستشهاد بالحديث الشريف في النحو واللغة واردٌ كثيراً، والذي قال بعدم صحة الاستشهاد منكرٌ لما هو واقع، وكان عليه أن يقول إن النحاة لم يكثرُوا من الاستشهاد بالحديث كما أكثرُوا من الاستشهاد بالقرآن والشعر، وكان عليهم ألا يأتوا بالأمثلة المصنوعة من زيد وعمرو وهند، فيأتوا بما يشبه الأضاحيك ويتركوا الحديث الشريف»^(٢)، ثم قال: «قرأت في الكتاب لـ(سيبويه) فلم أجد رفضه للاستشهاد بالحديث والأثر، لا تصريحاً ولا تلويحاً، بل قد وضعت يدي على أساليب وألفاظٍ موافقةٍ للحديث والأثر، سواء أقصد أنها حديث أو

(١) منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية / ١٩٨١.

(٢) ارتكاز الفكر النحوي ٦.

أثر أم لم يقصد، وُجد فيها الشاهد أم لم يوجد، ولم يشر إلى أيّ منها أنه حديث أو أثر وإنما احتجّ بها ومثّل كما يحتجّ بأيّ كلام عربي مثثور^(٣).

الفصل الأول من الباب الأول وفيه عشرة مطالب: وفيه تحدّث الدكتور فجال بالتفصيل عن سيبويه: حياته ونشأته، واسمه ومعناه، وسبب توجّهه إلى علم العربية، وذكر شيوخه وتلاميذه ومكانة كتابه، والمناظرة بينه وبين الكسائي^(٤) / ت ١٨٩ هـ، ثم ناقش هذه الأخبار إلى أن وصل إلى وفاته عام ١٨٠ / هـ، ثم حلل شخصيته بين النشأة والخاتمة.

وفي الفصل الثاني تحدّث المؤلف عن منهج سيبويه، وقسمه إلى خمسة مطالب، وفيها ذكر أن سيبويه لم ينسب الأبيات الشعرية إلى قائلها، وأن ذلك كان من عمل أبي عمر الجزمي^(٥) / ت ٢٢٥ هـ / ومن أتى بعده، ثم تحدّث عن أسلوب سيبويه وطريقته في إيراد الحديث والأثر في كتابه، وعلل سبب إحجام سيبويه عن نسبة الحديث والأثر، ونصّ أخيراً على دقة سيبويه في كل ما ذكره.

وسم المؤلف الباب الثاني بعنوان (الحديث والأثر)، وفيه كلام عن الاحتجاج بالحديث والأثر على إثبات القواعد النحوية، ثم تحدّث في فصل خاص عن موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث، ويبيّن أن النحاة السابقين لم يرفضوا الاحتجاج بالحديث والأثر، ثم بحث في الأسباب التي دعت ابن الضائع الأندلسي^(٦) / ت ٦٨٠ هـ / وأبا حيان الأندلسي^(٧) / ت ٧٤٥ هـ / إلى القول بعدم احتجاج النحاة بالحديث، ثم خصص فصلاً بيّن فيه دقة العلماء في

(٣) الموضوع السابق ٧.

(٤) الكسائي: علي بن حمزة.

(٥) الجزمي: صالح بن إسحاق.

(٦) ابن الضائع: علي بن محمد.

(٧) أبو حيان النحوي الأندلسي: محمد بن يوسف.

رواية الحديث، فتحدّث عن عناية علماء العربية برواية الحديث، ويبيّن أنّ سيبويه كان أول المحتجين بالحديث والأثر وإن لم يصرح بذلك، وذكر بعد ذلك شروط الاحتجاج بالحديث والأثر في النحو العربي.

أما الباب الثالث فاشتمل على مباحث تحت عنوان: (الحديث الشريف والشعر)، قارن فيه بين ما قيل في الحديث بخصوص الاحتجاج وما قيل في الشعر، ويبيّن الفروق بين الروايتين رواية الحديث ورواية الشعر، وذكر ما أخذ النقاد على الشعر الجاهلي والمآخذ النحوية على بعض الآيات، وذكر مخالفة سيبويه لروايات الدواوين، ثم ذكر مزايا الحديث الشريف أسلوباً ومضموناً.

أما القسم الثاني - وهو القسم الأكبر من الكتاب - فقد خصص لسرد الأساليب والألفاظ الموافقة للحديث والأثر في كتاب سيبويه، قال المؤلف: «قمت باستقراء الألفاظ في (الكتاب)، فوجدت مجموعة كبيرة موافقة لكلام النبي ﷺ ولكلام الصحابة رضي الله عنهم، مما له أصل في كتب السنة، فذكرت أولاً لفظ الشاهد وثانياً نص (الكتاب) والتعليق عليه، وثالثاً تخريج الشاهد، ورابعاً من استشهد به من النحاة»^(٨).

هذه هي الخطة التي أتبعها المرحوم فجّال في استخراج الألفاظ والأساليب الموافقة للحديث من كتاب سيبويه، ولما كان شغوفاً في الأصل بمطالعة كتب السنن فإنه تمكّن من استخراج سبع وثلاثين ومئة عبارة، أورد ما قاله سيبويه لادن كل منها، ثم خرّجها من كتب السنن وذكر الرواية فيها إن كان لها رواية أخرى، ثم ذكر من احتجّ بها من النحاة، وسنذكر مثلاً واحداً تاماً مما أتى به.

الشاهد الثاني والخمسون: (مشيخة).

قال سيبويه: «باب ما يكون من الأسماء صفة منفرداً، وليس بفاعل ولا

(٨) ارتكاز الفكر النحوي ١٠.

صفة تُشبهه بالفاعل ك (الحسن) وأشباهه، وذلك قولك: (مررتُ بحيةٍ ذراعٌ طولها)، و(مررتُ بثوبٍ سبعٌ طولُه)، و(مررتُ برجلٍ مئةٌ إبلُه)، فهذه تكون صفاتٍ كما كانت (خيرٌ منك) صفةً يدلُّك على ذلك قول العرب: (أخذ بنو فلانٍ من بني فلانٍ إبلاً مئةً)، فجعلوا (مئةً) وضمّاً... واعلم أن العرب يقولون: (قومٌ معلوجاءُ)، و(قومٌ مَشِيخةٌ)، و(قومٌ مشيوخاءُ)، يجعلونه صفةً بمنزلة: (شيوخ)، و(علوج)»^(٩).

تخريج (مَشِيخة):

أخرج البخاري في (صحيحه) في كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون / ٥٧٢٩، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسُرغ لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم: معك بقيةُ الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن نُقدِّمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأنصار. فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعُ لي من كان ههنا من مَشِيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف عليه منهم رجلان. فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقدِّمهم على هذا الوباء، فنأدى عمرٌ في الناس: إني مُصْبِحٌ على ظهرٍ فأصْبِحُوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قَدَرِ الله؟ فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة، نعم، نفرّ من قدرِ الله إلى قدرِ الله، أرأيت لو

(٩) ارتكاز الفكر النحوي ٢٩٦ عن كتاب سيبويه ٢: ٢٨، ٣٥.

كان لك إبلٌ هبطت وادياً لهُ عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جَدْبَةٌ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله؟ وإن رعيتَ الجَدْبَةَ رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: إنَّ عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدُمُوا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه. قال: فحمد الله عمرٌ ثم انصرف»^(١٠).

ومسلم في (صحيحه) في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها / ٥٧٨٤ / / ٢٢١٩ / .

ومن استشهد به:

ابن جني في: الخصائص ٣: ٦٧، ٣١١، وسر صناعة الإعراب ٢: ٥٦٨. ما تقدم كان نموذجاً من أصل (١٣٧) جاءت في نحوٍ من (٣٢٠) صفحة مستوفاة التخريج والإحالات مع الضبط التام. والحق يقال: إن المرحوم الدكتور محمود فجال قد بذل جهداً رائعاً تجاوز فيه كلَّ مَنْ سبقه في استخراج الحديث والأثر من كتاب سيبويه، كما بذل جهداً كبيراً في تخريج تلك الأحاديث والآثار - ومنها لا يعدو كلمة أو كلمتين - من الكتب الكبيرة الضخمة، ووضع بذلك حدّاً للجدل في مسألة الاحتجاج بالحديث، وأتى بالدليل الناصع والبرهان الساطع على أن سيبويه قد احتجَّ حقيقةً بالحديث والأثر، فجزاه الله كلَّ خيرٍ جرّاء ما بذله في بحثه من جهد في البحث والتنقيب والترتيب والتهديب.

* * *